زرياب: إشكالية المولد والنسب وكشف الغموض عن علاقته بإسحاق الموصلي وأسباب هجرته إلى الأندلس وأثره الفني والحضاري - دراسة تحليلية

Ziryab: The Problematic Issues of His Birth and Lineage, Clarifying the Ambiguity Surrounding His Relationship with Ishaq al-Mawsili and the Reasons for His Migration to al-Andalus, and His Artistic and Cultural Impact: An Analytical Study

م. د. أحمد ذهيب هادي: مدرس دكتور في التاريخ، المديرية العامة للتربية في محافظة كربلاء، العراق.

***Dr. Ahmed Thhayeb Hadi**: PhD Lecturer in History, General Directorate of Education in Karbala Governorate, Iraq.*

Email: Ahmed.zehaib@gmail.com

DOI https://doi.org/10.56989/benkj.v6i9.2109

تاريخ الاستلام:	2026-07-01	تاريخ القبول:	2026-08-15	تاريخ النشر	2026-09-01

الملخص:

هدف البحث إلى التحرّي عن شخصية مهمة أصبحت مثار جدل واسع وعميق، في زمانها وإلى الآن، لما لها من أثر كبير في مشرق الأمة ومغربها، ودور مهم في الموسيقى العربية. فكان زرياب شخصيةً جدليةً، محط اهتمام الباحثين والدارسين على حدٍّ سواء، ولم يستثنِ الباحثون والدارسون مفصلًا من مفاصل حياته إلا ناقشوه ودرسوه وفقًا لما توافر لديهم من مصادر ووثائق تُغني دراساتهم، إلا أن دراساتهم أغفلت جوانب مهمة من حياته، ولم تتناولها بشيء من التحليل والتفصيل إلا ما ندر. فجاءت دراستنا هذه لتقف على بعض الجوانب المهمة من حياته، ولا سيما ما يتعلّق بولادته ونشأته، كما ناقشت علاقته بالمغني إسحاق الموصلي، وما تمخّض عنها من مغادرة زرياب إلى الغرب عبر الشام، تاركًا بغداد رغبةً منه في الاستقرار في مكان جديد يجد فيه نفسه. وقد ناقشت دراستنا هذين الموضوعين بشيء من التحليل والدراسة، للوقوف على أسباب هجرته إلى الغرب وعدم بقائه في بغداد، ومن ثم انتقاله إلى الأندلس. واقترحت الدراسة أن تكون ولادة زرياب في عهد الخليفة المهدي، استنادًا إلى ما ورد في بعض المصادر التي أكدت أنه كان مولًى للمهدي، وأن زرياب لم يهاجر إلى الغرب خوفًا من بطش الخليفة هارون الرشيد، كما زعم بعض المؤرخين المغاربة، أو بسبب قصة التحاسد المزعومة التي خلت منها غالبية كتب المؤرخين المشارقة. ورجّحت الدراسة أن يكون زرياب نفسه قد أوحى إلى المغاربة بهذه القصة، أو أسهم في انتشارها، لتكون ذريعةً تساعده على الوصول إلى ضالته، والحظوة بمكانة مهمة لدى حكام الأندلس الأمويين.

الكلمات المفتاحية: زرياب، إسحاق الموصلي، الموسيقى العربية، الموسيقى الأندلسية، الأندلس، الهجرة، النسب والمولد، الفن والغناء، التأثير الحضاري، التاريخ الأندلسي.

Abstract:

The study aims to investigate the life of an important figure who has been the subject of extensive and profound controversy, both during his lifetime and to the present day, owing to his significant influence across both the eastern and western regions of the Muslim world and his important role in the development of Arab music. Ziryab thus emerged as a controversial figure who attracted considerable attention from researchers and scholars alike. Researchers have addressed almost every aspect of his life, discussing and examining it in light of the sources and documents available to them. Nevertheless, previous studies have overlooked several important aspects of his life and have rarely examined them in depth and detail. Accordingly, this study seeks to examine some significant aspects of his life, particularly his birth and upbringing. It also investigates his relationship with the musician Ishaq al-Mawsili and the circumstances surrounding Ziryab's departure westward via Syria, leaving Baghdad in search of a new place where he could establish himself and realize his artistic potential. The study analyzes these two issues in order to identify the reasons behind his migration westward, his decision not to remain in Baghdad, and his subsequent migration to al-Andalus. The study proposes that Ziryab was born during the reign of the Abbasid Caliph al-Mahdi, based on accounts in some sources that describe him as a mawla of al-Mahdi. It further argues that Ziryab did not migrate westward out of fear of persecution by Caliph Harun al-Rashid, as claimed by some Maghribi historians, nor because of the alleged story of jealousy that is absent from most of the works of eastern Muslim historians. The study suggests that Ziryab himself may have encouraged or contributed to the circulation of this story among Maghribi historians as a pretext that would facilitate his journey toward his desired destination and enable him to attain a prominent position among the Umayyad rulers of al-Andalus.

Keywords: Ziryab, Ishaq al-Mawsili, Arab Music, Andalusian Music, al-Andalus, Migration, Birth and Lineage, Art and Singing, Cultural Impact, Andalusian History.

المقدمة:

يلفُّ الغموضُ بعضَ جوانب حياة المغني زرياب، ولا سيما ما يتعلّق بولادته وموطنه الأصلي، وتعليمه وتعلّمه الموسيقى والغناء، وصولًا إلى أسباب مغادرته بغداد وتوجّهه إلى الأندلس. وعلى الرغم من كثرة الدراسات التي تناولت حياته، فإنها لم تصل، في بعض هذه الجوانب، إلى نتائج ملموسة وقطعية؛ إذ ما يزال الغموض يحيط بمحطات مهمة من سيرته، وفي مقدمتها موطنه الأصلي.

وسيتناول هذا البحث جملةً من الآراء التي طرحها عدد من الكتّاب والباحثين حول أصل زرياب وولادته ونشأته، مع محاولة مناقشتها وترجيح ما نراه أقرب إلى الصواب في ضوء الروايات والمصادر المتاحة. أمّا ما يتعلّق بانتقاله إلى بغداد، فلا نمتلك ما يؤيد هذه الفرضية بصورة واضحة، سوى اشتهاره في بعض المصادر باسم «زرياب الموصلي». ولم نقف، في حدود ما توافر لنا من المصادر، على رواية صريحة تبيّن سبب نسبته إلى الموصل، كما أن بعض الباحثين افترضوا أسبابًا متعددة لهذه التسمية، إلا أن الجدل حولها لم يُحسم بصورة نهائية.

ومن ثم، فإن القول بانتقال زرياب من الموصل إلى بغداد يبقى في دائرة الافتراض، لعدم وجود دليل تاريخي واضح يؤيد هذه الرواية. ولم نقف، في حدود المصادر التي اعتمدناها، على رواية صريحة تثبت انتقاله من الموصل إلى بغداد، الأمر الذي دفعنا إلى دراسة الروايات المتاحة ومقارنتها وتحليلها؛ بغية الوصول إلى رؤية أكثر ترجيحًا بشأن هذه المرحلة من حياته.

وقد قُسّم البحث إلى مبحثين؛ تناول المبحث الأول سيرة زرياب، واشتمل على دراسة ولادته ونشأته، وقصته مع إسحاق الموصلي، ثم رحلته من بغداد واتجاهه غربًا، وصولًا إلى الأندلس، وانتهى بالحديث عن وفاته. أمّا المبحث الثاني، فقد حمل عنوان الأثر الفني والحضاري لزرياب في الأندلس، وتناول أثره الحضاري في المجتمع الأندلسي، ثم أثره الفني في الموسيقى والغناء.

ولإنجاز هذا البحث، اعتمدنا على مجموعة من المصادر والمراجع التاريخية والأدبية، جاء في مقدمتها العقد الفريد لابن عبد ربه الأندلسي، والمقتبس لابن حيان، وبغية الملتمس للضبي، وجذوة المقتبس للحميدي، ونفح الطيب للمقري. كما استفدنا من عدد من المراجع الأجنبية المترجمة، من أبرزها الحضارة العربية في إسبانيا لليفي بروفنسال، وتاريخ الأكراد لتوماس بوا، وشمس العرب تسطع على الغرب لزيغريد هونكه، فضلًا عن عدد من المراجع العربية التي تناولت سيرة زرياب وأثره، ومنها قرطبة حاضرة الخلافة لسيد عبد العزيز سالم، والمئة الأوائل من تراثنا لسهيل زكار، وغيرها من المصادر والمراجع ذات الصلة بموضوع البحث.

ستساؤلات البحث:

1. ما الروايات المتضاربة حول مولد زرياب ونسبه، وأيها الأقرب الى الصحة في ضوء النقد التاريخي؟
2. ما طبيعة العلاقة بين زرياب وإسحاق الموصلي؟ أكانت كانت علاقة تلمذة فنية،أم علاقة تنافس أدت الى القطيعة؟
3. ما الأسباب الحقيقية لهجرة زرياب من بغداد الى الأندلس؟ وما رافق هذه الرحلة من ملابسات؟
4. ما الأثر الفني الموثق لزرياب في الموسيقى الأندلسية (الوتر الخامس، النوتات، المدارس الغنائية)؟
5. ما الأثر الحضاري لزرياب خارج نطاق الموسيقى (في آدابِ المائدة، الملابس، العطور، الإتيكيت)؟

أهمية البحث:

يُعدّ هذا البحث محاولةً جادّة لإعادة قراءة سيرة زرياب الموصلي قراءةً نقديةً تقوم على جمع الروايات المتناثرة في المصادر التراثية ومقارنتها وتحليلها، ولا سيما ما ورد في الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني، ونفح الطيب للمقري، والمغرب في حلى المغرب لأبي سعيد المغربي، وغيرها من المصادر، إلى جانب الاستفادة من الدراسات الحديثة التي تناولت حياته وأثره الفني والحضاري.

ويسعى البحث، من خلال هذه القراءة النقدية، إلى التمييز بين الروايات التاريخية التي يمكن الاستناد إليها، وتلك التي شابها التناقض أو المبالغة أو الأسطرة، بما يسهم في تنقية سيرة زرياب من بعض الروايات التي التصقت بها عبر القرون، وإعادة بناء صورته التاريخية والفنية في ضوء ما توافر من أدلة ومصادر. ومن شأن ذلك أن يضيف إلى الدراسات المتعلقة بتاريخ الأندلس والموسيقى العربية، وأن يفتح المجال أمام قراءة أكثر دقة وموضوعية لإسهامات زرياب الفنية والحضارية.

المبحث الأول: ولادته زرياب ونشأته

أولا: ولادته

انصبّ اهتمام المؤرخين ـ كما هو معلوم ـ على تدوين سير الملوك والقادة وأخبارهم، ولم تحظَ سير عامة الناس، ولا سيما ما يتصل بميلادهم ونشأتهم وحياتهم العامة، بالقدر نفسه من التوثيق، إلا في حالات محدودة. ولذلك، كانت أعمار كثير من الشخصيات تُحدَّد بالاستناد إلى الأحداث أو العهود التي عاصرتها، فيُقال: وُلد في زمن الخليفة فلان، أو عاصر الخليفة فلانًا. وفي ضوء ذلك، لم نقف في المصادر التي توافرت لنا على رواية تحدد سنةً صريحةً لولادة زرياب،

وجلّ ما ورد بشأنه أنه كان مولًى للخليفة المهدي (ابن طيفور، 2002، ج1، ص153؛ ابن دحية الكلبي، 1955، ص147).

أما ما ورد لاحقًا من تحديد سنة ولادته، فلا يعدو ـ في تقديرنا ـ أن يكون اجتهادًا أو تقديرًا لا يستند إلى رواية تاريخية صريحة؛ فقد ذكر ليفي بروفنسال (1994، ص66): «وُلد أبو الحسن علي بن نافع في العراق، عام (173هـ/789م)، وكان مولًى للخليفة العباسي المهدي». ويبدو أن بروفنسال لم يلتفت إلى الإشكالية الزمنية التي تنطوي عليها هذه الرواية؛ إذ إن الخليفة المهدي توفي سنة (169هـ/786م)، في حين أن تحديد ولادة زرياب سنة (173هـ/789م) يعني أن ولادته كانت بعد وفاة المهدي بأربع سنوات.

وإذا صحّ أن زرياب كان مولًى للخليفة المهدي، فإن تحديد ولادته بسنة (173هـ/789م) يثير إشكالًا تاريخيًا؛ إذ لا يستقيم، زمنيًا، أن يكون قد وُلد بعد وفاة الخليفة الذي نُسبت إليه موالاته، إلا إذا كانت الموالاة قد انتقلت إليه عن طريق أبيه، أو كانت قد ثبتت للأسرة قبل ولادته. غير أن الروايات التي بين أيدينا تنسبه صراحةً إلى موالي المهدي، الأمر الذي يجعل ولادته في أثناء خلافة المهدي، أو قبلها بقليل، احتمالًا أكثر اتساقًا مع المعطيات المتوافرة.

ومن شأن هذا الترجيح أن يثير بدوره تساؤلًا حول بعض التقديرات التي قدمها المستشرقون بشأن أصل زرياب وسنة ولادته، وهو ما سنناقشه لاحقًا. فلو صحّ أنه وُلد سنة (173هـ/789م)، لكان عمره عند حضوره مجلس الخليفة هارون الرشيد نحو سبعة عشر عامًا، وهي سنٌّ كان يمكن أن يُشار فيها إلى حداثة سنّه، ولا سيما في الروايات التي تناولت مجالس الخلفاء والمغنين. غير أن الروايات التي تحدثت عن زرياب في تلك المرحلة لم تقدمه بوصفه فتىً حديث السن، مما يجعل هذا التحديد الزمني محلّ نظر.

وعليه، نرجح أن تكون ولادة زرياب قد وقعت قبل ذلك التاريخ بمدة، وربما في حدود سنة (160هـ/777م)، وهو تقدير ينسجم ـ بصورة أكبر ـ مع الروايات التي تجعله من موالي الخليفة المهدي، كما يتوافق، في جانب منه، مع تقدير الشريف (2012، ص1)، الذي يرى أن الخليفة المهدي توفي وزرياب في نحو التاسعة من عمره. وبذلك يبدو أن تقدير سنة (160هـ/777م) أكثر اتساقًا مع مجمل المعطيات التاريخية المتاحة، مع التأكيد على أنه يظل تقديرًا ترجيحيًا لا تاريخًا قطعيًا لولادته.

ثانيا: التسمية:

الزرياب: (الأصفر من كل شيء)، فهو (معرَّب) من زرآب بالفتح، أُبدلت الهمزة ياءً للتعريب (الزبيدي، د.س، ج3، ص11)، وزرياب "لقب غلب عليه ببلده لسواد لونه مع فصاحة لسانه، شُبِّه

بطائر أسود غرّاد، وكان شاعرًا مطبوعًا، أستاذًا في الموسيقى، وعنه أخذ الناس" (المقري، 1997، ج3، ص121). وهذا القول أصبح مادة للمراجع التي بحثت في شخصية زرياب، التي نعتته بالأسود تشبّهًا بطائر الزرياب الأسود على حد قولهم، لكن الدميري (2004، ج2، ص10) قال: إنَّ الزرياب هو أبو زريق، نقلًا عن كتاب منطق الطير، والزرياب هو: "القيق، طائر على قدر اليمامة، وأهل الشام يسمونه أبا زريق، وهو ألوف للناس، فيه قبول للتعلم وسرعة الإدراك لما يعلم" (الدميري، 2004، ج2، ص363).

وفي ضوء ما جاء في التعاريف أعلاه، فإنّه يبدو أنَّ تسمية زرياب لم تأتِ من لونه الأسود المشابه إلى لون الطائر فحسب، كما قال المقري (1997، ج3، ص124)، وإنما من الصفات التي يتمتع بها هذا الطائر، ولا سيما قبوله التعلم وسرعة إدراكه، ولا نُرجّح هنا رأي المقري؛ لأن الزرياب لم يتخذ لونًا أسود فقط، وإنما له "جسم بنّي قرنفلي وذيل أسود ورقعة مميزة بلون أزرق باهت على كلا جناحيه" (("موسوعة الحيوان المصوّرة"، ASPDKW، تم الولوج في 4 مايو 2024، (https://www.aspdkw.com)).

ثالثا: نشأته

مثلما اختلف في سنة تولده، اختلف أيضًا في مكان ولادته ونشأته، وذُكرت في ذلك آراء عدّة، فقد ذكر ليفلي بروفنسال (1994، ص66) أن زرياب وُلد في العراق سنة (173 هـ/ 789 م) كما ذكرنا، وأكّدت الكاتبة الألمانية هونكة (1964، ص488) أنّ زرياب كردي النشأة، كذلك أشار المستشرق الفرنسي توماس بوا (2001، ص85) إلى أنَّ زرياب من القومية الكردية، وادّعى مجموعة من مؤرخي الكرد وكتّابهم (بوا، توماس، 2001، ص85؛ السندي، 2007، ص481)، انتماء المغني زرياب إلى القومية الكردية، قائلين إنّه ليس بالضرورة أن يدل لقبه الموصلي على أنّه عربي، ودعموا ادعاءهم بأدلة عدّة، منها:

1. أسهم انتقال زرياب من جزيرة أبي عمر (بوتان) (ياقوت الحموي، 1995، ج2، ص138) إلى الموصل في اكتساب زرياب لقب الموصلي، وبحسب اعتقادهم أنَّ هذا الأمر متعارف عليه في اكتساب اللقب، ويسوقون مثلًا على ذلك، الخليل ابن أحمد الفراهيدي عُماني المولد، وبانتقاله إلى البصرة عُرف بالبصري (ابن كثير، 1997، ج10، ص172؛ ابن خلكان، 1971، ج2، ص245).
2. أن زرياب بانتقاله إلى قرطبة، وسكنه فيها بقرب الأمير عبد الرحمن بن الحكم، لُقّب بالقرطبي، والقرطبي نسبةً إلى قرطبة محل إقامته الجديد (المقري، 1997، ج3، ص125).
3. ربما اعتمدوا قول بعض المستشرقين (هونكة، 1964، ص488؛ بوا، 2001، ص85) بانتماء زرياب إلى القومية الكردية.

ولا يُعرف أي شيء عن طفولة زرياب، وعن تعلّمه الموسيقى سوى ما قاله ابن عبد ربه: "وكان مطبوعًا على الغناء علّمه إبراهيم" (ابن عبد ربه، 1983، ج7، ص37). وفي ضوء كلام ابن عبد ربه، يعني أن زرياب تعلّم الموسيقى على يد إبراهيم الموصلي، إلى هنا لم نصل إلى ما يدلّنا على نشأته، والكيفية التي تعلّم فيها الموسيقى، ويبقى ما ذكرناه في الأعلى مجرد آراء نعمل على بيانها في ضوء مجريات البحث.

رابعا: العلاقة بين زرياب وإسحاق الموصلي

لنواصل البحث عن زرياب في بغداد، فتقول الرواية المشهورة عن علاقة زرياب بإسحاق الموصلي، إن زرياب أصبح تلميذًا لإسحاق الموصلي؛ ليتعلم منه العزف والغناء، وتدرّب على يديه إلى أن أصبح محترفًا في هذه الصنعة، فذات يوم طلب الخليفة الرشيد من إسحاق الموصلي أن يأتيه بموهبة جديدة، فرشّح له تلميذه زرياب الذي تتلمذ على يديه، ومدحه للرشيد، وفي مجلس الرشيد، وكما تقول الرواية، أن زرياب طلب الإذن ليغني فأذن له الرشيد، فقال: "لي عود نحتّه بيدي وأرهفته بإحكامي، ولا أرتضي غيره، وهو بالباب، فليأذن لي أمير المؤمنين في استدعائه، فأمر بإدخاله إليه، فلما تأمله الرشيد وكان شبيهًا بالعود الذي دفعه قال له: ما منعك أن تستعمل عود أستاذك؟ فقال: إن كان مولاي يرغب في غناء أستاذي غنيته بعوده، وإن كان يرغب في غنائي فلا بد لي من عودي، فقال له: ما أراهما إلا واحدًا، فقال: صدقت يا مولاي، ولا يؤدي النظر غير ذلك، ولكن عودي وإن كان في قدر جسم عوده ومن جنس خشبه فهو يقع من وزنه في الثلث أو نحوه، وأوتاري من حرير لم يغزل بماء سخن يكسبها أناثة ورخاوة، وبمَاه ومثلثه اتخذتهما من مصران شبل أسد، فلها في الترنم والصفاء والجهارة والحدة أضعاف ما لغيرها من مصران سائر الحيوان، ولها من قوة الصبر على تأثير وقع المضارب المتعاورة بها ما ليس لغيرها، فاستبرع الرشيد وصفه وأمره بالغناء" (ابن حيان، 2003، ج2، ص310؛ المقري، 1997، ج3، ص123).

فغنى زرياب وأُعجب به الرشيد، وأمر له بجائزة، وهذا الأمر أغضب إسحاق الموصلي، فقرر أن يبعده عن قصر الرشيد، بإحدى الطريقتين، الأولى التهديد بالقتل، والثانية أن يُهاجر، فقرر زرياب الهجرة غربًا (ابن حيان، 2003، ج2، ص312؛ ابن خلدون، 1988، ج1، ص540).

هذه هي الرواية المشهورة عن علاقة زرياب بإسحاق الموصلي، لا بد لنا من وقفة إزائها، فيبدو في ضوء قراءتنا للرواية أن ابن حيان هو من انفرد في ذكر هذه التفاصيل الطويلة عن علاقة زرياب بإسحاق الموصلي، ونقلها عنه المقري، وعليه فإنها بحاجة إلى إعادة ترتيب على وفق الزمان والمكان والأشخاص والأحداث، وإذا ما عدنا إلى ذكر قول ابن عبد ربه (1983، ج7، ص37): "وكان لإبراهيم الموصلي عبد أسود يقال له زرياب، وكان مطبوعًا على الغناء، علّمه

إبراهيم، وكان ربما حضر به مجلس الرشيد يغني فيه"، ابن عبد ربه ـ الذي جاء بعد إسحاق الموصلي وزرياب ـ، نستنتج من هذه المعلومة التي ذكرها ابن عبد ربه أن زرياب هو تلميذ لإبراهيم الموصلي، وليس لإسحاق الموصلي، هذا أولًا، وثانيًا: أن المغني في مجالس الغناء التي يقيمها الرشيد مغنٍ فقط، وهنا ضارب على العود هو من يعزف اللحن المطلوب (الجاحظ، 1914، ص38).

إن إسحاق الموصلي ليس بالوضاعة التي ذكرها ابن حيان حتى يخشى من تلميذه على حد زعمه، فقد ذكر ابن عبد ربه (1983، ج7، ص36): "سمعت إسحاق الموصلي يقول: حضر مسامرة الرشيد ليلة "عبثر" المغني، وكان فصيحًا متأدبًا، وكان مع ذلك يغني الشعر بصوت حسن، فتذاكروا رقة شعر المدنيين، فأنشد بعض جلسائه أبياتًا لابن الدمينة (ابن قتيبة، د.ت، ج2، ص721؛ الزركلي، 2002، ج4، ص102)، إذ يقول:

وأذكر أيام الحمى ثم أنثني * * * على كبدي من خشية أن تصدعا

وليست عشيات الحمى برواجع * * * عليك ولكن خل عينيك تدمعا

(التبريزي، د ت، ج2، ص60)

فأعجب الرشيد برقة الأبيات، فقال له "عبثر": يا أمير المؤمنين؛ إن هذا الشعر مدني رقيق، قد غُذّي بماء العقيق، حتى رقّ وصفا، فصار أصفى من الهواء، ولكن إن شاء أمير المؤمنين أنشدته ما هو أرق من هذا وأحلى، وأصلب وأقوى، لرجل من أهل البادية. قال: فإني أشاء. قال: وأترنم به يا أمير المؤمنين؟ قال: وذلك لك. فغنّى لجرير (1986، ج1، ص386):

إن الذين غدوا بلبك غادروا * * * وشلا بعينك لا يزال معينا

غيضن من عبراتهن وقلن لي * * * م إذا لقيت من الهوى ولقينا

قال: صدقت يا عبثرة! وخلع عليه وأجازه" (ابو الفرج الاصبهاني، 2002، ج7، ص76؛ النويري، 2004، ج4، ص282ـ284).

هذه حادثة مشابهة لما زعم ابن حيان، ولم نلاحظ فيها حسدًا وخشية إسحاق من "عبثر"، فلم يهدده ولم يهجّره.

هذه الرواية تنافي أن زرياب مولًى للخليفة المهدي، فقد دلّت على أنّه موسيقيًّا مستقلًّا قدّمه إسحاق الموصلي للخليفة.

إنّ الرشيد قد سمع من إسحاق مدحًا بحق زرياب، فكيف يعود مرة أخرى وينعته بالجنون (ابن حيان، 2003، ج3، ص312)، وهو الذي أتى به بحسب الرواية، وهنا يجب أن يكون للرشيد موقف لم تعلمنا به الرواية، وإنّما يبدو في ضوء الرواية أن الرشيد قد اقتنع بمسوّغ إسحاق المزعوم.

إن إسحاق الموصلي وُلد سنة بضع وخمسين ومائة للهجرة، وهي تقريبًا سنة (152هـ / 796م) أو (153هـ / 770م) (الذهبي، 1985، ج11، ص119)، وبحسب ما اقترحناه أنّ ولادة زرياب كانت سنة (160هـ / 777م)، وعليه فإن ولادة إسحاق الموصلي هي قريبة العهد بولادة زرياب، فمن غير الممكن أن يكون هو أستاذه، وعليه فإننا لا نركن إلى الرواية التي انفرد فيها ابن حيان، للأسباب التي بيّناها في أعلاه.

خامسا: هجرة زرياب الى الغرب

ما زالت الأمور التي تخصُّ زرياب إلى الآن غير واضحة، فقد كثرت التكهنات وتنوعت، عن هجرة زرياب إلى الغرب، فمنها الرواية المشهورة، المتمثلة بتهديد إسحاق الموصلي له، بعد مثوله أمام الخليفة الرشيد، ومحاولته إبراز نفسه على حساب معلمه إسحاق الموصلي، لكي يحصل على حظوة عند الرشيد، فنتج عن ذلك محاولته المزعومة للتخلص من زرياب، الأمر الذي أدّى إلى فراره من بغداد إلى المغرب.

ومنها ما قاله بروكلمان (1968، ص290): إن زرياب غادر العراق بعد أن استشعر حسد أستاذه الموصلي، وهذا الرأي يدور في مدار الرأي الأول.

ويرى ابن القوطية (1989، ص89) أن سبب رحيل زرياب من بغداد باتجاه المغرب كان في مطلع خلافة المأمون، أي سنة (198هـ/814م)، وعزا ذلك إلى أن زرياب كان أحد رجال الأمين، فغادر بغداد بعد مقتله خوفًا من بطش المأمون. ولا نرجح هذا الرأي؛ لأن غالبية رجال الرشيد أنفسهم انتقلوا إلى طاعة الأمين، ومن ثم المأمون، ولو كان الأمر كما يظن ابن القوطية، لبطش المأمون بإسحاق الموصلي، بل على العكس من ذلك، فإنه أراد أن يوليه القضاء، لولا أنه كان مغنيًا (أبو الفرج الأصفهاني، 2002، ج5، ص177).

ومنهم من قال إن تدهور الأوضاع الاقتصادية وسوءها في العراق بعد خلافة الرشيد، ولا سيما في خلافة المأمون، الذي جلس عشرين شهرًا دون أن يسمع غناءً (ابن عبد ربه، 1983، ج7، ص35)، قد يكون سببًا في ترك زرياب بغداد؛ لعدم حصوله على المكافآت والجوائز خلال تلك المدة. لذلك نرى أن سبب هجرة زرياب غربًا، فضلًا عن بعض الأسباب التي ذُكرت، ربما يعود إلى أنه لم يجد فرصته المنشودة للشهرة في بغداد، لكثرة المغنين فيها وازدحام قصر الرشيد

بهم، وربما لأن إمكاناته لم تكن تتناسب مع إمكاناتهم، أو لأنها لم تكن قد نضجت بعد؛ فقرر الرحيل غربًا، لعلّه يجد ضالته هناك.

واتخذ زرياب طريق الشام، فمصر، فالمغرب، حتى وصل إلى القيروان، عاصمة دولة الأغالبة، في عهد الأمير زيادة الله بن إبراهيم الأغلبي (201هـ–223هـ/816م–837م) (ابن عبد ربه، 1983، ج7، ص31). وتردد زرياب على قصر الإمارة الأغلبية، وغنّى للأمير الأغلبي شعرًا لعنترة العبسي، فلم يلقَ ذلك استحسان الأمير، وعدّه إهانة له، فأمر بضربه، ثم أمره بمغادرة البلاد، وقال له: «إذا وجدتك في بلدي بعد ثلاثة أيام ضربت عنقك». فلم يكن أمام زرياب سوى الأندلس، فخاطب أميرها الحكم، طالبًا منه الإذن بالوصول إليه، بعد أن ذاع صيته، على حد زعم بروفنسال، فسُرَّ الحكم بذلك، وأذن له بدخول الأندلس، وأرسل المغني منصور اليهودي لاستقباله.

غير أن المنية وافت الحكم، الأمر الذي أثّر في زرياب وجعله يندب حظه، لكن بعد تولي الأمير عبد الرحمن بن الحكم، الذي خلف أباه، بعث إلى زرياب يدعوه إلى القدوم إلى الأندلس (بروفنسال، 1994، ص67). فسافر زرياب وعائلته، وجاز البحر، واستقبله الأمير عبد الرحمن بن الحكم (المقري، 1997، ج1، ص344).

وفي ضوء ذلك، نرى أن زرياب، بعد أن أمره الأمير الأغلبي بمغادرة القيروان، إن صحت هذه الرواية، ابتعد عنها تنفيذًا لطلب الأمير، وظل يراقب الأحداث في الأندلس حتى وصل الأمير عبد الرحمن الأوسط، الذي عُرف باهتمامه بالعلوم والفنون، فانتهز زرياب الفرصة وجاز البحر إلى الأندلس، حتى وصل إلى بلاط الأمير بصفته فنانًا متعدد المواهب، ليحظى بمكانة لديه، وقد تحقق له ما أراد. فلم يكد زرياب يطأ أرض قرطبة حتى استقبله الأمير عبد الرحمن بنفسه سنة (206هـ/822م) (ابن خلدون، 1988، ج1، ص540؛ بروكلمان، 1968، ص290–291).

وهنا لابد من وقفة لمراجعة بعض الأحداث التي تخص زرياب خلال المدة الممتدة من خروجه من بغداد، ولنفترض أنها كانت في السنوات الأخيرة من حكم هارون الرشيد، ولتكن قبل خروجه إلى خراسان، وهذا يعني، افتراضًا، أنه خرج سنة (189هـ/805م)؛ لأن الخليفة هارون الرشيد، بعد هذا التاريخ، انشغل بثورة رافع بن الليث بن نصر بن سيار (النسفي، 1999، ج1، ص162)، فضلًا عن رد هجمات البيزنطيين (ابن الجوزي، 1992، ص177–178).

وبناءً على ذلك، تكون رحلة زرياب من بغداد إلى الأندلس قد استمرت مدة طويلة، تقارب 17 سنة، وهي مدة تبدو طويلة إذا ما قورنت برحلة عبد الرحمن الداخل من بغداد إلى الأندلس. فزرياب، الذي يُفترض، بحسب الرواية المتعلقة بالمؤامرة المزعومة عليه، أنه كان مطاردًا من السلطة العباسية، شأنه في ذلك شأن عبد الرحمن الداخل، الذي وصل إلى الأندلس على الرغم من

ملاحقة الخلافة العباسية الناشئة له في مختلف الأمصار. فقد هرب عبد الرحمن الداخل من بغداد سنة (132هـ/750م)، ووصل إلى الأندلس سنة (138هـ/757م)، أي خلال ست سنوات فقط.

وعليه، فإن كليهما، بحسب الرواية، كان من المفترض أن يكون قد مر بالظروف نفسها. وهنا لابد من القول إن زرياب لم يخرج مكرهًا من بغداد، وإنما خرج بمحض إرادته لأسباب خاصة، وليس لإسحاق الموصلي أية علاقة بخروجه.

وما يدعم هذا التوجه أن رواية خروج زرياب بسبب إسحاق الموصلي لم يذكرها الأصفهاني، صاحب كتاب الأغاني. كما أن الخطيب البغدادي لم يترجم لزرياب بوصفه من شخصيات بغداد، وحتى الجاحظ، عندما تحدث عن مجالس طرب هارون الرشيد، ذكر مطربيه المفضلين وعازفيه، لكنه لم ينوه، ولو بإشارة صغيرة، إلى زرياب (الجاحظ، 1914، ص38).

وفي المقابل، انفردت كتب المغاربة بذكر هذه الرواية (ابن حيان، 2003، ج2، ص310؛ المقري، 1997، ج3، ص124). وحتى النويري (2004، ج3، ص146)، الذي ذكر الكثير في كتابه نهاية الأرب عن مجلس هارون الرشيد ومغنيه، لم يذكر هذه الحادثة، وكل ما ذكره عن زرياب هو محادثة الخليفة المأمون مع علوية، مطرب العباسيين الذي عاصر الرشيد وابنيه الأمين والمأمون، والتي تذمر فيها علوية من قلة عطايا الخليفة المأمون له، مقارنة بما كان يتقاضاه زرياب، مولى العباسيين، بحسب قول علوية، من الأمويين في الأندلس.

وهذه الجملة بحد ذاتها كافية لإضعاف الرواية التي تُحمّل إسحاق الموصلي مسؤولية مغادرة زرياب إلى الأندلس؛ لأن علوية دلّ المأمون على مكان مولاه الهارب منهم. ونرى أن زرياب ربما ابتكر هذه القصة، أي قصة الحسد، ليجعلها ذريعةً تُعجّل دخوله إلى الأندلس، لما كان يعرفه من عداء وتنافس بين الأمويين والعباسيين من جهة، واهتمام أمير الأندلس بالعلوم والفنون من جهة أخرى.

وما يؤيد ذلك انفراد المصادر المغربية بذكر هذه الرواية، كما أشرنا سابقًا، وهو ما يجعلها بحاجة إلى مزيد من التمحيص والمقارنة بالمصادر المشرقية المعاصرة أو الأقرب زمنيًا إلى الأحداث، قبل اعتمادها بوصفها تفسيرًا قطعيًا لخروج زرياب من بغداد.

لنعد الآن إلى زرياب بعد وصوله إلى الأندلس؛ فالترحيب الذي حظي به، والمكانة التي حصل عليها في القصر، يتناسبان مع مكانته الفنية في مجالس الموسيقى والغناء. فوجود فنان متعدد المواهب في قصر الإمارة من شأنه أن يعزز المكانة الفنية والعلمية للأندلس، وأن يجعلها منافسًا لبغداد في هذين المجالين، وهو ما سعى إليه الأمير عبد الرحمن الأوسط (القجة، 1982، ص81).

وفرض عبد الرحمن بن الحكم لزرياب عطاءً شهريًا قدره مائتا دينار، كما خصص له مكافأة قدرها ثلاثة آلاف دينار في العيدين، وفرض له عطايا أخرى، منها مائتا مُدّ من الشعير ومثلها من الحنطة، فضلًا عن قصور وحدائق تُقدّر قيمتها بأربعين ألف دينار، فأصبح بذلك موسيقي الأمير (ابن حيان، 2003، ج2، ص314؛ بالنثيا، 1955، ص53).

وقد حظي زرياب بمكانة فنية بارزة في الأندلس، حتى إن الحميدي وصف منزلته بقوله: «وزرياب عندهم كان يجرى مجرى الموصلي في الغناء، وله طرائق أخذت عنه، وأصوات استفيدت منه، وألفت الكتب بها، وعلا عند الملوك هنالك بصناعته وإحسانه فيها علوًا مفرطًا، وشهر شهرة ضرب بها المثل في ذلك» (الحميدي، 1966، ص102؛ الضبي، 1989، ج1، ص149؛ ياقوت الحموي، 1993، ص65).

ومع ذلك، أظهر بعض العلماء والفقهاء تذمرهم مما كان يحصل عليه زرياب من هبات وجوائز من الأمير، ولا سيما الفقيه عبد الملك بن حبيب السلمي، الذي قال:

ألف من الشقر وأقلل بها * * * لعالم أربى على بغيته
يأخذها زرياب في دفعة * * * وصنعي أشرف من صنعته

(ابن سعيد المغربي، 1955، ج2، ص96)

ووصل صيته إلى بغداد، التي انطلق منها، وأصبح مثار حسد المقربين من الخليفة المأمون، ومنهم المغني علوية، الذي كان برفقة الخليفة المأمون في رحلة إلى الشام. وأثناء الرحلة، تجول المأمون ومرافقوه في قصور بني أمية، فدخلوا قصرًا مفروشًا بالرخام الأخضر، يتوسطه حوض ماء تسبح فيه الأسماك، وتحيط بالقصور البساتين، الأمر الذي أسَرَّ المأمون وأعجبه، فعزم على المبيت في القصر، ودعا مغنيه علوية ليطربه.

فغنّى له علوية قصيدة من شعر عبد الله بن قيس الرقيات، أحد شعراء العصر الأموي، وأنشد منها الأبيات الآتية:

لو كان حولى بنو أمية لم * * * تنطق رجال أراهم نطقوا
من كل قرم محض ضرائبه * * * عن منكبيه القميص ينخرق "

(النويري، 2004، ج3، ص146)

الأمر الذي أثار حفيظة الخليفة وغضبه، فخاطب علوية قائلًا: «عليك وعلى بني أمية لعنة الله! ويحك، أقلتُ لك: سرّني أو سؤني؟ ألم يكن لك وقت تذكر فيه بني أمية إلا هذا الوقت،

فتُعرّض بي؟». فتجلدت عليه، وعلمت أنني قد أخطأت، فقلت: «أتلومني على أن أذكر بني أمية؟ هذا مولاكم زرياب عندهم، يركب في مائتي غلام مملوك له، ويملك ثلاثمائة ألف دينار، وهبوها له، سوى الخيل والضياع والرقيق، وأنا عندكم أموت» (ابن طيفور، 2002، ج1، ص153؛ الطبري، 1967، ج8، ص657؛ النويري، 2004، ج3، ص146).

سادسا: وفاته

علمنا فيما سبق أن غالبية محطات حياة زرياب يلفها الغموض، وقد امتد هذا الغموض ليشمل وفاته أيضًا. فقد ذكر ابن حيان (2003، ج2، ص332) أن وفاته كانت سنة (243هـ/857م)، وهو ما يطابق ما أورده ابن دحية (1955، ص147) من أنه توفي في السنة نفسها. في المقابل، ذكر الزركلي (2002، ج5، ص28) أنه توفي سنة (230هـ/845م)، وهو اختلاف زمني واضح بين المصادر في تحديد سنة وفاة زرياب.

المبحث الثاني: الأثر الحضاري والفني

أولا: مهارات زرياب وابتكاراته وأثره الحضاري في المجتمع الأندلسي

على الرغم من تفرّد زرياب في الموسيقى والغناء، فإنه عُدَّ أعجوبة زمانه في الأندلس؛ فقد عجز الزمان عن أن يأتي بمثله. فضلًا عن إجادته الغناء وتميّزه فيه، فقد أجاد مجالات أخرى تميّز فيها أيضًا؛ فكان مهتمًا بالفلك، ومتابعًا لحركات النجوم، وعارفًا بطوالعها وتأثيراتها واختلاف طبائعها. وقد أتاح له ذلك، بحسب ما تذكره بعض المصادر، فهمًا أوسع للعلاقة بين الإيقاع والنغم، وما يرتبط بالمؤلفات الموسيقية وألحانها ونغماتها.

أما إجادته علومًا ومعارف وصنائع أخرى، فقد وظّف الموسيقى في تعليم بعض المعارف للمتعلمين؛ إذ استعملها في تعليم الفلسفة والهندسة والبلاغة. ولم يقف عند هذا الحد، بل أجاد فنونًا أخرى قلّده فيها معظم الأندلسيين، حتى ساستهم؛ فكان حاذقًا في فنون الكلام، وحسن المعاشرة، وآداب المجالسة بين مختلف طبقات الناس، ومهارة الخدمة الملكية، ومعرفة الفنون المرتبطة بالبلاط، فضلًا عن إدخاله طرائق وترتيبات جديدة لوضع الطيب على الجسم والملابس (ابن حيان، 2003، ج2، ص318–319).

وأحدث زرياب، عند وصوله إلى الأندلس، تحولًا واسعًا في المجتمع الأندلسي عامة، وفي قرطبة خاصة، شمل فنون الغناء والموسيقى وبعض جوانب الحياة الاجتماعية والثقافية. وأصبح لزرياب، بفضل هذا التحول، مدرسة موسيقية تضاهي مدرسة إسحاق الموصلي في بغداد، حتى إن أسلم بن أحمد بن سعيد صنّف كتابًا في أغاني زرياب وطرائفه وأخباره (ابن حزم، 1987، ج1، ص258؛ سالم، 1997، ج1، ص87).

ونالت مكانة زرياب إعجاب الملوك والناس على حد سواء، فأصبح حديث مجالس الأنس واجتماعاتهم. وكان من أكثر الشخصيات التي تسترعي انتباه الأندلسيين وتثير تقديرهم، حتى بلغ تقديرهم له حدًا بعيدًا (علاف، 1963، ص66). ومن ثم، كان لزرياب أثر بالغ في المجتمع الأندلسي، لم يقتصر على الموسيقى والغناء، وإنما امتد إلى الذوق العام واللياقة والأدب الاجتماعي؛ فكان ما يقوم به أو يقوله يُعدّ، في نظر معاصريه ومقلديه، نموذجًا يحتذى، أو ما يمكن أن نطلق عليه في الاصطلاح المعاصر «الموضة» (زكار، 1990، ص522).

وزيّن زرياب مجالس الأندلسيين، وجعلوه قدوة لهم فيما ابتكره من آداب ونظم جديدة أصبحت جزءًا من حياتهم اليومية. فقد تفنّن في تنظيم أنواع الطعام وطرائق إعداده وتقديمه، حتى لقّبه الأندلسيون ووسموه بـ«معلّم الناس» (الحجي، 1970، ص34–35).

ومن آثاره أيضًا ما يتصل بالأزياء وتسريحات الشعر؛ فقد كان الأندلسيون، رجالًا ونساءً، يرسلون شعرهم مفروقًا من منتصف الجبين. فلما رأوا زرياب وأولاده وقد اختلفت طريقة تصفيف شعورهم، بادروا إلى تقليدهم، فقصّروا شعورهم دون الجباه، وسوّوها مع الحواجب، وجعلوها مستديرة إلى الآذان، وأرسلوها إلى الأصداغ (المقري، 1997، ج3، ص127؛ الفيومي، ج1، ص335).

وعلّم الأندلسيين الطريقة العراقية في الطهي، وضرورة ترتيب الأطعمة بدلًا من وضعها دفعةً واحدة (زكار، 1990، ص523). كما درّبهم على إعداد الموائد الأنيقة الراقية، وعلى أن تُقدَّم عليها الأطباق وفق نظام وترتيب معينين؛ ففي البداية تُقدَّم أطباق الشوربة والسواخن، ثم تليها الأطباق التي يُقدَّم فيها اللحم والطيور المعالجة بالبهارات الجيدة، وأخيرًا تُقدَّم أطباق الحلوى المتنوعة، ولا سيما الفطائر المحشوة بالجوز واللوز والعسل (ابن حيان، 2003، ج2، ص322؛ العبادي، ص143؛ بروفنسال، 1994، ص71).

وأخذ الأندلسيون عنه استعمال الأواني المصنوعة من الزجاج الرفيع بدلًا من الأواني المصنوعة من الفضة والذهب؛ لجمال منظر الزجاج، وسهولة تنظيفه، وانخفاض كلفته مقارنةً بالأواني السابقة (المقري، 1997، ج3، ص127؛ بروفنسال، 1994، ص71). كما أخذوا عنه اختيار غطاء موائد الطعام المصنوع من الجلد الناعم بدلًا من الكتان؛ لسهولة تنظيفه. وابتكر أنواعًا من الطعام لم تكن معروفة من قبل لدى الأندلسيين، ومن أشهرها نوع مصنوع بماء الكزبرة (المقري، 1997، ج3، ص127).

وعلّمهم كذلك بعض فنون التجميل والعناية بالمظهر، والاهتمام بجمال البشرة ونعومتها، وإزالة رائحة العرق، كما عرّفهم بطرائق إزالة الشعر والخضاب، واستعمال ما يشبه معجون الأسنان في وقتنا الحاضر (المقري، 1997، ج3، ص127؛ بروفنسال، 1994، ص71).

وفي مجال الأزياء، نُسب إلى زرياب أنه علّم الأندلسيين نظامًا خاصًا لارتداء الملابس وفق فصول السنة، وتنوع درجات الحرارة وتقلبات الجو؛ فرأى أن يرتدي الناس في فصل الصيف الملابس القطنية البيضاء، وأن يلبسوا الثياب الملونة ذات البطائن الكثيفة في فصل الخريف، أما في فصل الشتاء، حيث يشتد البرد أكثر من الخريف، فكان يرى ارتداء ملابس أكثر سماكة من الملابس الملونة (المقري، 1997، ج3، ص127؛ الحجي، 1970، ص35).

وهنا نرى أن ارتداء الملابس وتغييرها بحسب فصول السنة، واختيار ما يناسب درجات الحرارة والظروف المناخية، من الأمور التي عرفها الإنسان منذ القدم، وهي ممارسة مرتبطة بالحاجة إلى التكيف مع البيئة والمناخ، ولذلك نستبعد أن يكون لزرياب أثر أصيل في نشأة هذا السلوك. والأرجح أن أثره، إن ثبت، كان في تنظيم بعض أنماط اللباس وتحديد الألوان والطرائق التي راجت في الأندلس خلال عصره، لا في أصل فكرة تغيير الملابس تبعًا لفصول السنة.

ثانيا: الأثر الفني

ادّعى زرياب، أو نُسب إليه، أن الجن كانت تعلّمه الألحان؛ إذ ذكر المقري: «أن الجن كانت تعلمه في كل ليلة ما بين نوبة إلى صوت واحد، وكان يهب من نومه سريعًا، فيدعو بجاريتيه غزلان وهنيدة، فتأخذان عودهما، ويأخذ هو عوده، فيطارحهما ليلته ويكتب الشعر، ثم يعود عجلًا إلى مضجعه، وكذلك يُحكى عن إبراهيم الموصلي في لحنه البديع المعروف بالماخوري أن الجن طارحته إياه، والله تعالى أعلم بحقيقة ذلك» (الخوارزمي، 1978، ج1، ص266؛ المقري، 1997، ج3، ص126).

وهنا لا بد من الوقوف إزاء ما ادعاه زرياب، أو ما نُسب إليه، من أن الجن كانت تعلّمه الألحان؛ إذ نرى أن هذه الرواية أقرب إلى الأسطورة منها إلى الحقيقة، ولا سيما في ظل غياب ما يؤيدها من المصادر التاريخية الموثوقة. ومن المرجح أن زرياب قد تتلمذ على يد أحد الموسيقيين البارزين، أو أن ذكاءه وفطنته وموهبته الفنية أسهمت في تطوير قدراته الموسيقية، ومن ثم فلا يبدو أن ثمة ما يثبت علاقة الجن بمهارته الموسيقية.

ونُسب إلى زرياب أيضًا أنه أدخل تحسينات عديدة على آلة العود، وأنه اتبع طريقة خاصة في اختيار تلاميذ مدرسته التي أسسها في قرطبة لتعليم الغناء والعزف. وقيل إنه استعمل مواد مبتكرة وجديدة في صناعة أوتار العود، فجعلها أكثر متانة وأفضل أداءً للألحان، كما زاد في أوتار عوده وترًا خامسًا من ابتكاره؛ إذ كان العود، وفق الرواية، ذا أربعة أوتار على الصنعة القديمة، فأضاف إليها وترًا خامسًا أحمر متوسطًا (ابن حيان، 2003، ج2، ص317؛ المقري، 1997، ج3، ص127).

غير أن هذه الرواية تثير بعض التساؤلات عند مقارنتها بالمصادر التي تناولت الموسيقى في القرون اللاحقة. فقد وجدنا، في ضوء البحث، أن الأوتار الأربعة ظلت ملازمة للعود حتى بعد وفاة زرياب، أي في القرن الرابع الهجري، الذي أُلِّفت فيه رسائل إخوان الصفا، وقد أفردوا في رسائلهم رسالة خاصة بالموسيقى. ولم نقف، عند قراءتنا لهذه الرسالة، على إشارة إلى تطور في عدد أوتار العود أو زيادة وتر خامس عليه (إخوان الصفا، 1985، ج1، ص103).

ولو كان زرياب قد أحدث هذا التطور بالفعل، فمن المحتمل أن تكون الإشارة إلى الوتر الخامس قد ظهرت في بعض المؤلفات الموسيقية اللاحقة، ولا سيما في مؤلف تناول الموسيقى بصورة تفصيلية، ولذلك فإن غياب هذه الإشارة في رسالة الموسيقى لإخوان الصفا يثير الشك حول مدى صحة نسبة هذا التطور إلى زرياب، ويجعل المسألة بحاجة إلى مزيد من المقارنة بين المصادر الموسيقية والتاريخية.

وكانت أوتار العود الأربعة، قبل الإضافة المزعومة للوتر الخامس، تُسمّى: البم، والمثلث، والمثنى، والزير (إخوان الصفا، 1985، ج1، ص103). وكان لكل وتر من هذه الأوتار خصائص تميّزه عن غيره؛ فالزير، مثلًا، كان مصبوغًا باللون الأصفر، وكانت منزلته من العود بمنزلة الصفراء من الجسد (ابن حيان، 2003، ج2، ص317).

وبناءً على ذلك، فإن نسبة اختراع الوتر الخامس إلى زرياب ينبغي التعامل معها بحذر، ولا سيما أن الأدلة التي يمكن الاستناد إليها لإثبات هذا التطور ليست حاسمة. ومن ثم، فإن ما نُسب إلى زرياب من تطوير آلة العود، سواء في مواد صناعة الأوتار أو في إضافة وتر خامس، يظل بحاجة إلى دراسة موسيقية وتاريخية مقارنة تستند إلى أقدم المصادر التي وصفت صناعة العود وأوتاره وتطورها.

أما الوتر الثاني، الموسوم بـ«المثنى»، فقد صُبغ باللون الأحمر، ومثّل من العود منزلة الدم من الجسد. وأما الوتر الثالث، فقد بقي على لونه، «وهو من العود بمنزلة البلغم من الجسد» (ابن حيان، 2003، ج2، ص216). واكتسى الوتر الرابع اللون الأسود، فمثّل من الجسم منزلة السوداء من الدم (المقري، 1997، ج3، ص126؛ بروفنسال، 1994، ص67). واستعمل زرياب مِضراب عوده من قواد النسر؛ للطف الريش وخفته على أصابعه (ابن حيان، 2003، ج2، ص318).

وكانت قرطبة بالنسبة إلى زرياب فضاءً حرًا ومنطلقًا لكشف مواهبه وابتكاراته الفنية، مدعومًا بصورة مباشرة من الأمير عبد الرحمن بن الحكم، الأمر الذي أسهم في افتتاح مدرسة لتعليم الغناء والموسيقى. وكان يُقبل في هذه المدرسة التلاميذ المحبون للموسيقى والغناء، ولا يُقبل المتقدم فيها إلا بعد اجتيازه اختبارًا تُعدّه إدارة المدرسة؛ إذ كان زرياب يمتلك قدرة على انتقاء أصحاب الأصوات الموهوبة، حتى وإن لم يفصح الموهوب عن مواهبه (المقري، 1997، ج3، ص125).

وبعد اجتياز هؤلاء الفتية الاختبار، كان زرياب يتولى بنفسه متابعتهم وتعليمهم، معتمدًا على مبادئ ذات طابع فلسفي، يسهل على التلاميذ استيعابها، ومن شأنها المساعدة في تليين أصواتهم وضبط حركات شفاههم، بما يسهم في تجاوز العيوب الخَلقية والتغلب عليها إن وُجدت (المقري، 1997، ج3، ص125).

وبعد أن ذاع صيت هذه المدرسة واشتهرت، قيل إنها فتحت أبوابها لتلاميذ من أوروبا، بعد أن كانت مقتصرة على التلاميذ المسلمين؛ إذ وفد إليها دارسون من فرنسا وألمانيا لتعلم هذه الفنون، ثم عادوا إلى بلدانهم حاملين شهادات في فنون الموسيقى والغناء. ولذلك عُدَّ زرياب، وفق هذه الرواية، من أوائل من أسهموا في انتقال بعض أشكال الموسيقى الدنيوية إلى أوروبا، بعد أن كانت الموسيقى الأوروبية في جانب كبير منها مرتبطة بالمؤسسة الدينية (أبو الرب، هاني، 2009، ص274).

ولم يقتصر تعلّم الموسيقى والغناء في مدرسة زرياب على هؤلاء التلاميذ، وإنما امتد ليشمل جواري ومحظيات زعماء الأندلس، فضلًا عن أولاده وجواريه. وكان ابنه عبد الرحمن من أشهر تلاميذه وألمعهم، الأمر الذي أهّله لتولي إدارة المدرسة التي أسسها زرياب بعد وفاته، متلقيًا الدعم من أمير الأندلس، الذي خصص له راتبًا قدره عشرون دينارًا (المقري، 1997، ج3، ص125).

وأجادت الغناء أيضًا ابنته حمدونة، التي تزوجت الأمير هشام بن عبد العزيز، وهو أخو أسلم بن عبد العزيز، الذي ألّف كتابًا في أغاني زرياب وطرائفه، كما ذكرنا سابقًا. وقد علّم زرياب الموسيقى والغناء عددًا من جواريه، ومنهن هنيدة وغزلان، اللتان كان يطارحهما الغناء والعزف (ابن حيان، 2003، ج2، ص316؛ المقري، 1997، ج3، ص127).

وقد فاقت شهرة زرياب غيره من المغنين، وغلبت ألحانه على المشهد الموسيقي في قرطبة بصورة خاصة، وفي الأندلس بصورة عامة، فتراجعت مكانة من سبقه من المغنين، ولا سيما الأسماء التي كانت لها المكانة الرفيعة، مثل علّون وزرقون، اللذين كانا من أوائل المغنين الذين دخلوا بلاد الأندلس، إلا أن صوت زرياب وموسيقاه فاقا ما كان لهما من شهرة ومكانة (المقري، 1997، ج3، ص130).

الخاتمة:

لا يدّعي هذا البحث الإحاطة بجميع جوانب شخصية زرياب ومسيرته العلمية والفنية والاجتماعية، وإنما اقتصر على ما أمكن الوقوف عليه من معلومات في المصادر التاريخية والأدبية المتاحة، وتحليلها في ضوء السياقات التي وردت فيها. وقد سعى البحث إلى توظيف هذه المادة العلمية بما يخدم موضوع الدراسة ويتيح الوصول إلى قراءة أكثر نقدية لبعض الروايات

والأخبار المتصلة بزرياب. وانطلاقًا من ذلك، تقتضي المنهجية العلمية عرض أبرز النتائج التي أسفرت عنها الدراسة، والتي يمكن إجمالها في النقاط الآتية:

1. نرجّح أن تكون ولادة زرياب قد وقعت في عهد الخليفة المهدي؛ لكونه من مواليه، وأن تكون ولادته في بغداد، وليس في عهد الخليفة الرشيد.
2. يسود قدرٌ كبير من الاضطراب وعدم الوضوح بين الباحثين في تحديد مسقط رأس زرياب ونسبه؛ إذ تراوحت الآراء بين القول بأنه من الموصل، والقول بأنه من بغداد، إلا أن الدراسة تميل إلى ترجيح الرواية التي تجعله بغدادي المولد.
3. توصلت الدراسة إلى أن زرياب اختار التوجه إلى الأندلس بمحض إرادته، وأن ما نُسب إلى الخليفة الرشيد وإسحاق الموصلي من دور في دفعه إلى الهجرة إلى الأندلس لا تؤيده الأدلة التاريخية الكافية.
4. توصلت الدراسة إلى أن زرياب لم يُضف الوتر الخامس إلى آلة العود، خلافًا لما أوردته بعض المصادر التاريخية.
5. أسهم زرياب في إثراء الحركة الثقافية والفنية في الأندلس، ونقل إليها مجموعة من الفنون والممارسات والابتكارات الحضارية، ولا سيما ما يتصل بآداب السلوك والمجالسة، وتنظيم الموائد والطعام، وبعض أنماط الأزياء وتسريحات الشعر، وغيرها من مظاهر الحياة الاجتماعية والتمدّن.

قائمة المصادر والمراجع:

- ابن الجوزي، عبد الرحمن بن علي. (1992). المنتظم في تاريخ الملوك والأمم (تحقيق: محمد عبد القادر عطا ومصطفى عبد القادر عطا). دار الكتب العلمية.
- ابن القوطية، محمد بن عمر. (1989). تاريخ افتتاح الأندلس (تحقيق: إبراهيم الأبياري، ط. 2). دار الكتاب المصري.
- ابن حزم، علي بن أحمد. (1987). رسائل ابن حزم (تحقيق: إحسان عباس، ط. 2). المؤسسة العربية للدراسات.
- ابن حيان، حيان بن خلف. (2003). المقتبس (تحقيق: محمد علي مكي). مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية.
- ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد. (1988). ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر (تحقيق: خليل شحادة، ط. 2). دار الفكر.

- ابن خلكان، أحمد بن محمد. (1972). وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان (تحقيق: إحسان عباس). دار صادر.
- ابن دحية الكلبي، عمر بن حسن. (1955). المطرب من أشعار أهل المغرب (تحقيق: إبراهيم الأبياري وآخرين). دار العلم للجميع.
- ابن سعيد المغربي، علي بن موسى. (1955). المغرب في حلى المغرب (تحقيق: شوقي ضيف، ط. 4). دار المعارف.
- ابن طيفور، أحمد بن أبي طاهر. (2002). بغداد (تحقيق: عزت العطار الحسيني، ط. 3). مكتبة الخانجي.
- ابن عبد ربه، أحمد بن محمد. (1983). العقد الفريد. دار الكتب العلمية.
- ابن قتيبة، عبد الله بن مسلم. (د. ت.). الشعر والشعراء. دار الحديث.
- ابن كثير، إسماعيل بن عمر. (1997). البداية والنهاية (تحقيق: عبد الله بن عبد المحسن التركي). دار هجر.
- أبو الرب، هاني. (2009). زرياب وأثره في الحياة الفنية والاجتماعية في الأندلس. مجلة جامعة القدس، (15).
- أبو الفرج الأصفهاني، علي بن الحسين. (2002). الأغاني (تحقيق: إحسان عباس وآخرين). دار صادر.
- إخوان الصفا. (1985). رسائل إخوان الصفا وخلان الوفا. مكتب الإعلام الإسلامي.
- أشرف، جمال عبد الله. (1998). عناصر الأغاني الفلكلورية الكردية في العراق [رسالة ماجستير غير منشورة]. كلية الفنون الجميلة.
- بالنثيا، آنخل جنثالث. (1955). تاريخ الفكر الأندلسي (ترجمة: حسين مؤنس، ط. 2). مكتبة الثقافة الدينية.
- بروفنسال، ليفي. (1994). الحضارة العربية في إسبانيا (ترجمة: أحمد طاهر مكي، ط. 3). دار المعارف.
- بروكلمان، كارل. (1968). تاريخ الشعوب العربية (ترجمة: نبيه أمين فارس ومنير البعلبكي، ط. 5). دار العلم للملايين.
- بوا، توماس. (2001). تاريخ الأكراد (ترجمة: محمد تيسير ميرخان). دار الفكر.
- التبريزي، يحيى بن علي. (د. ت.). شرح ديوان الحماسة. دار القلم.

- الجاحظ، عمرو بن بحر. (1914). التاج في أخلاق الملوك (تحقيق: أحمد زكي باشا). المطبعة الأميرية.
- جرير، بن عطية. (1986). ديوان جرير. دار بيروت.
- الحجي، عبد الرحمن علي. (1970). تاريخ الموسيقى في الأندلس. دار الإرشاد.
- الحميدي، محمد بن أبي نصر. (1966). جذوة المقتبس في ذكر ولاة الأندلس. الدار المصرية للتأليف والترجمة.
- الخوارزمي، يوسف بن أبي بكر. (1987). مفتاح العلوم (تحقيق: نعيم زرزور، ط. 2). دار الكتب العلمية.
- الدميري، محمد بن موسى. (2004). حياة الحيوان الكبرى (ط. 2). دار الكتب العلمية.
- الذهبي، محمد بن أحمد. (1985). سير أعلام النبلاء (تحقيق: شعيب الأرناؤوط وآخرين، ط. 3). مؤسسة الرسالة.
- الزبيدي، محمد بن محمد. (د. س.). تاج العروس من جواهر القاموس (تحقيق: مجموعة من المحققين). دار الهداية.
- الزركلي، خير الدين بن محمود. (2002). الأعلام (ط. 15). دار العلم للملايين.
- زكار، سهيل. (1990). المئة الأوائل من تراثنا (ط. 1).
- سالم، سيد عبد العزيز. (1997). قرطبة حاضرة الخلافة (ط. 1). مؤسسة شباب الجامعة.
- السندي، بدر خان. (2007). المجتمع الكردي في المنظور الاستشراقي.
- الشريف، ماجد علوي. (2012). الأثر الاجتماعي للموسيقي زرياب في الأندلس. مجلة المفتاح، (3).
- الضبي، أحمد بن يحيى. (1989). بغية الملتمس في تاريخ رجال أهل الأندلس (تحقيق: إبراهيم الأبياري، ط. 1). دار الكتاب اللبناني.
- الطبري، محمد بن جرير. (1967). تاريخ الرسل والملوك (تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، ط. 2). دار التراث.
- العبادي، أحمد مختار. (د. ت.). في تاريخ المغرب والأندلس. دار النهضة العربية.
- علاف، عبد الكريم. (1963). الطرب عند العرب (ط. 1). منشورات المكتبة الأهلية.
- الفيومي، أحمد بن محمد. (د. ت.). المصباح المنير في غريب الشرح الكبير. المكتبة العلمية.

- القحة، محمد حسين. (1982). محطات أندلسية. الدار السعودية.
- المقري، أحمد بن محمد. (1997). نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب (تحقيق: إحسان عباس). دار صادر.
- النسفي، عمر بن محمد. (1999). القند في ذكر أخبار سمرقند (تحقيق: يوسف الهادي). مرآة التراث.
- النويري، أحمد بن عبد الوهاب. (2004). نهاية الأرب في فنون الأدب. دار الكتب العلمية.
- هونكة، زيكريد. (1964). شمس العرب تسطع على الغرب (ترجمة: فاروق سعيد بيضون). دار العالم العربي.
- ياقوت الحموي، ياقوت بن عبد الله. (1993). معجم الأدباء (تحقيق: إحسان عباس). دار الغرب الإسلامي.
- ياقوت الحموي، ياقوت بن عبد الله. (1995). معجم البلدان (ط. 2). دار صادر.